

أدباء جزائريون بين الواقع الإبداعي والتهميش النقدي

أ. وردة سلطاني

قسم الأدب – جامعة باتنة

تمهيد: أدب الهامش هو الأدب الذي لم يحض أدباؤه باهتمام، فغيب إنتاجهم على الساحة النقدية، والقراءات الفاعلة جزئيا أو كليا في فترة من الفترات التاريخية، قديما أو حديثا، وبناء على هذا حرم هؤلاء الأدباء من التلقي جزئيا، أو كليا.

وفي هذه المداخلة سأطرح قضية الأدب المغربي القديم والجزائري على سبيل الخصوص، لأنه غيب على الساحة النقدية قديما وحديثا، عينت أربع محطات في الأدب الجزائري القديم من القرن الثاني الميلادي حتى القرن التاسع عش، وكل أديب قارنته بأديب آخر عاش معه في الفترة نفسها، أو في فترة قريبة منه، وقد حظي هذا الآخر باهتمام كبير أو على الأقل سمع مدى صوته عبر العصور بينها يبقى الأول في طي النسيان وفي عداد المغمورين.

المحطة الأولى: تعود بنا إلى الأدب الجزائري في العهد الروماني مع الكاتب الفيلسوف لوكيوس أبوليوس، عاش في القرن الثاني الميلادي في الفترة ما بين (125م-180م)، ولد في مدينة مداور⁽¹⁾ بنوميديا ينتمي إلى قبيلة جدالة البربرية، كان معتزا لكونه ينتمي إلى هذه المدينة وإلى قبيلة جدالة، رافضا كل ما هو أجنبي جاء مع الاستعمار، فهو يسمى

نفسه (أبوليوس المداوري الأفلاطوني) كان والده من أعيان المدينة فحرص على تعليم ابنه.

درس أبوليوس في مسقط رأسه في جامعة مداوروش⁽²⁾ ثم في قرطاجنة، ثم في أثينا، ثم في روما، أتقن اللغتين اليونانية واللاتينية كان يبدع بهما نبع في الشعر والخطابة والهندسة والفلك والموسيقى والفلسفة يقول: "تعاطيت القدح الأول من عناصر الآداب فرفعني عن الغرار، وتعاطيت الثاني من عالم اللغة فزودني بالمعرفة، وتعاطيت الثالث من معالم الخطابة فدرّعني بالبلاغة، وعند هذا الحد يتوقف ما يتعاطاه أغلب الناس، لكني أنا أفرغت في أثينا أقداحا أخرى، قدح الشعر الممزوج، وقدح الهندسة الصافي، وقدح الموسيقى العذب، وقدح المنطق الحامض إلى حد ما، وتعاطيت قبل كل شيء قدح رحيق الفلسفة العامة الذي لا ينضب معينه"⁽³⁾.

كان معجبا بفلسفة أفلاطون، فنبع فيها حتى سمي أفلاطون مداوروش كما كان خطيباً⁽⁴⁾ مصقعا وشاعرا وكاتبا مميزا وهو أكثر الأدباء الجزائريين في هذه الفترة وما تلاها ثقافة وسعة إطلاع وأصالة أيضا من الكتاب المغاربة الآخرين الذين عاشوا في الشرق الجزائري حول جامعة مداوروش أمثال مينكوس وفيليكس (ق 2 م) والقديس أوغسطين (ق 4 م) وتيرتوليان (ق 5 م)⁽⁵⁾ هؤلاء الكتاب والفلاسفة ذابوا في الثقافة الرومانية ودافعوا عن سياستها، وبما أنهم أصبحوا جزءا لا يتجزأ من هذه الثقافة فقد أهتم بهم أنصار هذه الثقافة حتى العصر الحديث، اشتهروا كحاملو الفلسفة الرومانية التي انبنت عليها المجتمعات الأوروبية فيما بعد.

بينما بقي أبوليوس طي النسيان، لأنه لم يجاري السياسة الرومانية، ولم يلبس ثقافتها، بل كان معتزا بمغربيته وبتقافته وانتمائه يقول: " لم يملكني في يوم من الأيام أي نوع من الشعور بالخجل من وطني"⁽⁶⁾ وهذا الإحساس العميق بمغربيته جعل من مواطني مداوروش يقدرونه " فقد عثر في حفريات مداوروش على تمثال نصفي لأبوليوس أهداه له سكان هذه المدينة"⁽⁷⁾. أبوليوس كان ينظر إلى الرومان على أنهم غزاة اضطهدوا ونهبوا

شعبه، لذا رفض ثقافتهم و أدار ظهره لعقيدتهم المسيحية، لأنها عقيدة جاء بها الغزاة، وبقي على وثنيته مخلصا لها، فكان معجبا بالإلهة الشرقية إزيس خالصا لها عبوديته كما نرى في نهاية الحمار الذهبي يقول: " وبعد هذا الحديث عكفت على ممارسة الطقوس الدينية بدقة متعبة للغاية، لأن أمل المستقبل رهن بما لي الآن عند الإلهة من حظوة" (8). وكان لرفضه لثقافة الرومان أن أُلصقوا به تهمة السحر وحوكم، وقد دافع⁽⁹⁾ عن نفسه وبرأها من هذه التهمة الشنيعة يذهب عثمان سعدي إلى أن "المؤرخين الرومان والفرنسيين والجزائريين المتأثرين بهم أسدلوا ستارا من التعظيم على الكاتب النوميدي الأصيل أبوليوس في الوقت الذي سلطوا فيه الأضواء على كتاب مترومنين أمثال القديس أوغسطين وغيرهم"⁽¹⁰⁾.

المحطة الثانية: تأخذنا إلى القرن الثالث الهجري مع الشاعر التيهرتي بكر ابن حماد ، ولد في مدينة تيهرت (200هـ - 290هـ)، "أخذ العلم عن علمائها ، ثم طلبه في القيروان تتلمذ هناك على شيخها سحنون، ثم رحل إلى المشرق استقر في مدينة بغداد أخذ العلم على أبي الحسن البصري، وأبي حاتم السجستاني، وابن الأعرابي تلميذ الأصمعي، ومسدد ابن مصرهد الأسدي، وبشر من حجر"⁽¹¹⁾.

أصبح شاعرا مقلقا له مكانة مرموقة لا تقل عن شعراء عصره، اتصل بالخلفاء العباسيين ومدحهم، كما كانت تربطه علاقات حميمة ووطيدة بأبي تمام ودعبل الخزاعي وسلم بن الوليد (صريح الغواني) فصاحبهم وكانت له معهم مساجلات أدبية⁽¹²⁾ خاصة بينه وبين دعبل الخزاعي هجاء الخلفاء.. وإذا اكتفينا من حياة بكر بهذا الجزء في بغداد ومع كبار الشعراء فإننا حتما سنقر بمكانته الشعرية والأدبية التي تجعله يقف جنبا إلى جنب مع الشعراء العباسيين، وعلى الرغم من أن النقد القديم اهتم بالشعراء المذكورين إلى جنب بكر، إلا أنهم أغفلوا شاعرنا، وكذلك فعل النقاد المحدثين، والسبب يعود إلى أن النقاد القدامى والمحدثين ينظرون إلى الأدب المغربي بصفة عامة بأنه أدب من الدرجة الثانية،

فهم إما متأثرون بالمشاركة أو متأثرون بالأندلسيين ولا يعترفون بأن لديهم شخصية أدبية مستقلة.

لهذا نسمع الكثير عن أبي تمام وسلم ابن الوليد ودعبل الخزاعي ولا نسمع إلا القليل عن بكر بن حماد.

المحطة الثالثة: تأخذنا إلى القرن الخامس الهجري مع عميد الكتابة في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين وهو ركن الدين أبو محرز الوهراني، ولد بمدينة وهران

(515_575هـ)⁽¹³⁾ أخذ العلم عن شيوخ الجزائر، ثم رحل إلى المشرق العربي استقر بالقاهرة أيام صلاح الدين الأيوبي الذي امتد سلطانه إلى الشام، عاصر الوهراني عميد الكتابة القاضي الفاضل، الذي كان يتولى الكتابة الديوانية، والقاضي الفاضل كان أدبيا معروفا بطريقته في الكتابة، وكان الوهراني يطمح أن يصبح كاتباً في أحد الدواوين إلا أن القاضي الفاضل كان له بالمرصاد ، وقد أحس بالمنافسة فحاول إقصاءه، ما جعل كاتبنا يتحول في كتابته إلى الطريقة الهزلية، وكان رائدها دون منازع، وكانت طريقته الهزلية يميل فيها إلى التصوير الكاريكاتوري، وكان خصمه القاضي الفاضل الهدف الأول يقول في رسالة بعث بها إلى " مجد الدين ابن المطلب" يقول عند ذكر حمام الفيوم في أحد مناماته: " فلم أشعر إلا والحائط الشرقي قد انشق وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة وإنما وجهه في صدره ولحيته في بطنه مثل بعض الناس" ⁽¹⁴⁾ وكان يريد ببعض الناس القاضي الفاضل، كان قصيرا محدودبا، ففطن القاضي الفاضل إلى هذا التعريض، وصمم على إقصائه من القاهرة، وسعى في تعيينه خطيبا في جامع دارية نواحي دمشق.

ولئن كان الصراع الأدبي على أشده بين القاضي الفاضل والوهراني، فهذا يترجم لنا أن هذا الأخير كان ندا وخصما معاندا له .ولئن كتب النقد القديمة والحديثة لم تغفل القاضي الفاضل فإنها ضربت صفحا عن الوهراني وعن مكانته الأدبية وأعماله يقول عبد العزيز

الأهواني: "يكاد ركن الدين الوهراني أن يكون مجهولا لدى جمهرة المتأدبين في العصر الحاضر . والمتخصصون في تاريخ الأدب العربي لا يعرفون عنه إلا القليل" (15).

المحطة الرابعة: تأخذنا إلى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر مع المؤرخ والكاتب الجزائري أبو راس الناصر (1165هـ - 1238هـ) الموافق لـ: 1823م، هو محمد بن أحمد ابن الناصر الجليلي المعسكري المعروف بأبي رأس الناصر، ولد بمدينة معسكر في أسرته فقيرة، أخذ قسطا من التعليم على والده، ثم رحل إلى العاصمة ، ثم إلى المغرب، ثم إلى تونس ثم البقاع المقدسة واستقر بالقاهرة فترة من الزمن كما زار القدس.

تتلمذ على عبد القادر المشرفي (16) وعلى مشايخ كثيرين منهم أحمد بن عمار مفتي مدينة الجزائر ومحمد مرتضى الزبيدي، انقطع للتدريس حتى اشتهر أمره بين الناس في المشرق والمغرب، أصبح له طلاب كثيرون يفوق عددهم ثمانون وسبع مائة طالب (780).

كان أبوراس شاعرا ومؤرخا وأديبا ومفتيا وقاضيا، كثير التأليف تروى مؤلفاته عن الخمسين كتابا (17) .

عاصر أبوراس المؤرخ المصري الجببرتي، كلاهما عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر، سمي الجببرتي كتابه " عجائب الآثار في التراجم والأخبار" وأطلق أبوراس على كتابه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، كتب الجببرتي كتاب "مظهر التقديس بذهاب دوله الفرنسيين" وكتب معاصره أبوراس كتابه "مقال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيين" وكلا المؤرخين تتلمذ على الشيخ مرتضى الزبيدي، ودرس أبوراس على علماء كانوا محل اهتمام الجببرتي (18) كلاهما ألم إماما كاملا بثقافة عصره، وكانا لامعين، بالإضافة إلى أن أبا راس رحل إلى مصر والحجاز مرتين ودخل فلسطين والشام وعاد إلى بلاده مارا بمصر أيام الحملة الفرنسية وبعدها،

ورغم ذلك فإن اسم الجببرتي معروف لدى العام والخاص بينما يبقى اسم أبا راس مغمورا طواه النسيان.

الهوامش :

- 1- مدينة مداوروش في الشرق الجزائري تابعة ولاية سوق أهراس حاليا. قديما مدينة جامعية استمر نشاطها الثقافي عدة قرون على الأقل في ازدهار هائل أثناء عهد نوميديا.
- 2- هذه المدينة من أزهى المستعمرات الرومانية توجد بها جامعة هي الثانية بعد جامعة روما . ينظر عثمان سعدي. عروبة الجزائر عبر التاريخ. ش،و،ن،ت .الجزائر 1982، ص74.
- 3- ينظر مقدمة الحمار الذهبي . ترجمة . أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، ط3، 2006، ص27.
- 4- ينظر: محمد الطمار الروابط الثقافية، بين الجزائر والخارج، ش.و.ن.ت الجزائر، ط1، 1983، ص62 وما بعدها.
- 5- ينظر عثمان سعدي، المرجع السابق، ص74.
- 6- نفسه.
- 7- نفسه.
- 8- أبوليوس .الحمار الذهبي .ص.239
- 9- نفسه.ص77
- 10-عثمان سعدي . المرجع السابق. ص74
- 11 – محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ص77.
- كذلك، عبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 128 وما بعدها.
- 12 – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ط1، 1995.

13 – ابن خلكان وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. ج4. ص385 . كذلك محمد الطمار. تاريخ الأدب الجزائري، ص169.

14 – مقامات ومنامات ألوهراي . تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش. منشورات الجمل ط1. 1998 . ص153

15 – المرجع نفسه . المقدمة

16 – ينظر، محمد أبو رواس، فتح الإله ومنته في التحديث بفضل ربي ونعمته . تحقيق محمد عبد الكريم. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1990.

17 – ينظر أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2 .ش.و.ن.ت . الجزائر، 1981، ص390 وما بعدها ،كذلك أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ش.و.ن.ت. الجزائر، 1981، ص87.

18 – المرجع نفسه.